

محمد محمد المدني

دعائم الاستقرار في التشريع القرآني(1)

من طبيعة الإنسان أن ينفر من كل تكليف يحد من حريته، ويقيده في تصرفاته بشيء من القيود. ذلك أن الإنسان - من بين الكائنات الحية - ذو اعتداد بفهمه، وشعور بقوته التفكيرية وسلطانه العقلي، فهو يتساءل دائماً: لماذا يقيد؟ وبأي حق يقيد الآخرين؟ وهل هم في تقييدهم إياه منصفون أو متحكمون؟ فإذا استطاع أن يجيب على هذه الأسئلة في نفسه إجابات معقولة يطمئن إليها، أو أن يسمع من غيره إجابات تريحه وتقنعه، قبل مبدأ التقييد والنزول عن حريته، واعترف بحق الذي يقيد وأذعن لسلطانه، وهياً حياته على حساب هذا القيد طائعا مختاراً حتى يصبح بعد حين أمراً مألوفاً لديه، يحبه، ويدافع عنه، ولا يرضى به بديلاً؛ أما إذا لم يقتنع بالإجابات النفسية أو الخارجية عن هذه الأسئلة أو عن بعضها، فإنه يثور على هذا القيد أو على من يحاول فرضه عليه، أو يبيح لنفسه التخلص منه في خفية كلما أمكنه هذا التخلص وأمن معه على نفسه وماله وما يهيمه.

لهذا كانت كل القوانين والتكاليف محتاجة إلى دعائم ثلاث، لكي تستقر وتؤدي إلى الغاية منها، وتصبح في نظر المجتمع قاعدة التعامل والسلوك: تلك الدعائم الثلاث هي:

1 إقناع المكلفين بحاجتهم إلى قبول مبدأ التقييد في الجانب المعين الذي يراد التكليف به، وفرض أي نوع من أنواع الالتزام فيها؛ وبعبارة أخرى: مجيء هذا التقييد بعد أن يشعر المكلفون أنفسهم بحاجتهم إلى مجيئه.

(هوامش)

(1) من كتاب جديد بهذا العنوان لفضيلة الأستاذ رئيس التحرير.